

الحضارة الاسلامية من وحي الذكر الحكيم

محمد المكي الناصري

عندما أكرم الله الإنسانية بنزول القرآن كان نزوله بالنسبة إليها نقطة تحول وانطلاق نحو مرحلة جديدة لم تعرف لها نظيرا في العصور السابقة، واستطاعت أمة القرآن أن تستوعب رسالته الحضارية العظمى، فاتخذته رائدها وقائدها، وجعلت منه المفتاح الذي تفتح به أقفال المعرفة والمصباح الذي تشرق بنوره حجب الكون المجهول.

وقياما بواجبها نحو هذا الكتاب المقدس، ليعم نوره العالمين من العرب والعجم، كرّست جهودها وسخرت طاقاتها لتمهيد كل الطرق والوسائل، حتى يتمكن الجميع من الاهتداء بهديه والاعتراف من بحره، والعمل بتعليماته، واتباع توجيهاته.

وتحقيقا للوعد الالهي بحفظه من كل تحريف أو خلل، مصداقا لقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، (الحجر، 9) أخذ فريق من أبنائها على عاتقهم أن يبتكروا وينشئوا من العلوم ما يكون وافيا بهذا الغرض، فوجهوا دراساتهم الأولى إلى الأبحاث التي لها علاقة وثيقة بالقرآن، وفي ظرف وجيز من الزمن خرجوا على الناس بعلوم جديدة لم تكن معروفة قبل الاسلام، منها ماهو موجّه لخدمة النص القرآني والمساعدة على فهمه كيفما كان محتواه، مثل علوم اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والتجويد والقراءات والتفسير، ومنها ماهو مخصص للتعاليم التي جاء بها القرآن، مصنفة حسب موضوعاتها، فاستخرجوا من الآيات المتعلقة بالعقائد علم أصول الدين، واستنبطوا من الآيات

المتعلقة بالمواعظ والسلوك علم التصوف والأخلاق، وكذلك الأمر بالنسبة للعلوم الخادمة للحديث.

وإلى جانب هذا العمل العلمي والحيوي للملة الاسلامية اتجه فريق آخر من أبناء الأمة الاسلامية وجهة قرآنية أخرى، فقد لفت أنظار هذا الفريق مايزخر به كتاب الله من مآت الآيات التي تشير من قريب أو بعيد إلى مايملاً الكون من ظواهر طبيعية وغيرها، وراعهم ما ترمز إليه تلك الآيات من حقائق علمية، فاعتبروها مؤشرات مشجعة على وجوب البحث عن كل ما له صلة بها من المعارف والعلوم التي اهتدى إليها الفكر الانساني في الحضارات القديمة.

فمثلاً عندما تدبروا قول الله تعالى، حكاية عن إبراهيم، ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ﴾ (الشعراء، 80) وقوله تعالى عن عسل النحل ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ (النحل، 69)، وقوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الاعراف، 31) دار في خلدكم أنه لا يدرك معنى هذه الآيات على الوجه الأكمل الا من أحاط علماً بالطب، وإذن فليقبلوا عليه بكل جوارحهم حتى يصبحوا من أئمة البارزين.

وعندما تلوا بإمعان قول الله تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمان، 3) وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابِ﴾ (يونس، 5) وقوله تعالى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (لقمان، 29)، تيقنوا انه لايعرف حقيقة ما تشير إليه هذه الآيات من شؤون الشمس والقمر وولوج الليل في النهار الا من عرف علم الهيئة، وإذن فليقبلوا على دراسة علم الفلك إلى أن يصبحوا في قمة الفلكيين المعدودين. (وقد حكى الفخر الرازي ان بعض العلماء مر يهودي وبين يديه مسلم يقرأ عليه علم هيئة العالم، فسأل اليهودي عما يقرأ عليه المسلم فقال له : أنا أفسر له آية من كتاب الله، فسأله ماهي وهو متعجب فقال له : هي قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق، 6) قال اليهودي : فأنا أئين له كيفية بنائها وتزيينها، فاستحسن العالم ذلك منه — «الموافقات» للشاطبي ج 1، ص 23، طبعة المطبعة السلفية القاهرة)

وعندما استحضروا بانتباه قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار، 6 — 8) تأكدوا من أن هذه الآيات لا يعرف معناها على وجه التحقيق الا من عرف تشرح أعضاء الانسان ظاهرا وباطنا، وعرف عددها وأنواعها ومنافعها وحكمتها، وإذن فليولوا وجوههم شطر هذا العلم الطريف، إلى أن يصبحوا على رأس علمائه الخالدين.

وعندما اكتشفوا قول الله تعالى ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف، 185) اقتنعوا بصورة نهائية أن الله وجه إليهم دعوة عامة للكشف عن كل ما يحتوي عليه الكون، دون تخصيص لشيء دون آخر، وللبحث عن كل علم ظهر ويظهر في الوجود، دون تمييز بين صنف وآخر، وبناء على ذلك اعتبر حجة الاسلام أبو حامد الغزالي، وشرف الدين ابن أبي الفضل المُرسي، وجلال الدين عبد الرحمان السيوطي، أن من تفكر في القرآن واتمس غرائبه صادف فيه دلالات وإشارات من «أوائل ومجامع» علم الأولين و «الآخرين»، ثم صرح الغزالي في كتابه «جواهر القرآن» وهذا التصريح يعتبر من تنبؤاته العجيبة والصادقة — حيث قال مانصه : «ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لايتارى فيها أن في الامكان والقوة أصنافا من العلوم لم تخرج بعد إلى الوجود وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، كما أن علوما أخرى كانت قد خرجت إلى الوجود واندurst الآن، فلن يوجد في هذه الاعصار على بسيط الأرض من يعرفها» «جواهر القرآن» (ص 26، طبعة بيروت).

وهكذا وجدنا فريقا من المسلمين تعمقوا في فهم الآيات البينات المتضمنة للعقائد والشعائر والشرائع والأخلاق، وبنوا على أساسها صروحا شامخة من العلوم الإسلامية الصرفة، ووجدنا فريقا آخر من المسلمين تعاملوا — بنفس الطريقة — مع الآيات البينات التي تشير إلى المعارف الإنسانية الأخرى، فاتخذوها منطلقا للبحث عن بقايا العلوم والفنون التي عرفت قبل الإسلام، إيماننا منهم بأن الله تعالى أقامهم حراسا أمناء على تراث الانسانية جمعاء، ثم قاموا بتصحيح ما وجدوا فيها من اغلاط وأخطاء، وتنقيتها من شوائب الأوهام والخرافات، واستحدثوا منهاجاً علمياً جديدا استمدوه من روح القرآن، التي تعتمد على المشاهدة والتجربة ولا

تقبل سوى الحجة والبرهان، وبفضل المنهج القرآني ابتكروا علوما عديدة فتحت في وجه الإنسانية آفاقا جديدة.

وللمزيد من الكشف عن هذه الظاهرة الإسلامية والتعمق في دراستها، وتحديد الحوافز والمغريات التي حفزت المسلمين إلى إنشاء حضارتهم الرائعة والشاملة في أقصر فترة من الزمن أرى من المفيد أن أعرض على أنظاركم جملة من الحوافز والدوافع التي استعملها القرآن الكريم، متوسلا بها إلى أداء رسالته المقدسة في هذا المجال مجال الكونيات والعلميات.

أولا

إن القرآن العظيم هو أول كتاب إلهي دعا الانسان دعوة ملحة ومتواصلة إلى مائدة العلم، وأغراه بالجلوس على بساطها، وتناول غذائه الكامل منها. وللوصول إلى هذه الغاية استعمل كل الوسائل النافعة، والأساليب الناجعة، الملائمة لطبيعة الانسان وتكوينه المادي والروحي، وفي طليعة تلك الوسائل والأساليب :

- 1 — إثارة ما هو كامن في الانسان من غريزة حب الاستطلاع.
- 2 — إثارة ما هو مجبول عليه من حب التظاهر بالعلم، والتمكن من المعرفة وكرهية الجهل.
- 3 — إثارة ما فيه من حب لذاته، وحرص على استمرار نوعه، وسعي إلى التوصل بجميع الوسائل لقضاء مآربه وتحقيق مصالحه، وتعريفه بأن الأشياء التي يطالبه القرآن بالنظر فيها وتتبع أطوارها إنما هي مخلوقة من أجله، ومسخرة لمنفعته، وإن الغاية المباشرة منها هي توفير كل ما يحتاج إليه من ضروريات وحاجيات وكفايات.

ولم ينتظر كتاب الله أن تمر العصور تلو العصور على الانسان، حتى تتحرك فيه — من تلقاء نفسه — غريزة حب الاستطلاع، وما ارتبط بها من الدوافع الأخرى، بل إنه أثارها وحركها في الانسان منذ اليوم الأول من نزول القرآن، وخصص لما عاجله من كونيات وعلميات أكثر من ربع آياته البينات.

— فمن شواهد الأسلوب الأول — وهو إثارة ما هو كامن في الانسان من غريزة حب الاستطلاع قوله تعالى في سورة (الفرقان، 45): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ (مكية).

وقوله تعالى في سورة (النور، 43 — مدنية) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزِجِي سَحَاباً، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّاماً﴾.

— ومن شواهد الأسلوب الثاني — وهو إثارة ما جبل عليه الانسان من حب التظاهر بالعلم وكراهية الجهل — قوله تعالى في سورة (الزمر، 9 — مكية) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى في سورة (الأنعام، 50 — مكية) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

— ومن شواهد الأسلوب الثالث — وهو إثارة ما في الانسان من حب لذاته، وحرص على استمرار نوعه — قوله تعالى في سورة (عبس، 24 — 32) ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

ثانيا

إن كتاب الله جرت سنته في نظم آياته البينات على أن يبرز بشكل قوي مشاهد الكون وظواهر الطبيعة، ويجذب نحوها البصائر والأبصار، بل على أن يضعها غير ما مرة في مكان الصدارة، ويخصها بالأولوية والأسبقية في غير ما آية، وذلك كلما أراد تأكيد معنى خلقي، أو تقرير مبدأ اعتقادي من أصول الدين، وكثيرا ما يجدد الحديث عن نفس المشاهد والظواهر في عدة آيات وعدة سور مكية ومدنية، هذا مع أن المؤمنين الذين انزل عليهم القرآن لا يكذبون بآياته، ولا يشكّون في تعاليمه وتوجيهاته، وفي امكانه أن يعرض عليهم حقائقه ورفائقه رأسا دون تمهيد ولا مقدمات، ودون حاجة إلى تدعيمها بالمشاهد الكونية، والظواهر الطبيعية.

ومادام كتاب الله منزها عن اللغو والحشو والتكرار — إذن هو منزّه عن كل نقص — وما من كلمة من كلماته، أو حرف من حروفه، إلا ووراءه سرّ دفين وحكمة بالغة، فقد أصبح لزاما على الذهن الفاحص أن يلتمس الحكمة في ذلك، مستندا إلى ما يقتضيه المقام، ويدل عليه السياق، وهو أن كتاب الله أراد أن يجعل الكون الذي هو «صنع الله» حاضرا أمام المؤمنين دائما في ثنايا ما يتلوه عليهم من «كلام الله» حتى يرتبط الانسان بالكون الذي هو جزء منه ارتباطا محكما وثيقا، وحتى يمتد بينه وبين العالم من حوله جسر متين من الألفة والاندماج يؤدي بهما إلى التعارف والتكاتف، والتقارب والتجاوب، والأخذ والعطاء، لخير الدنيا والدين.

ومن شواهد هذا الأسلوب المتبع في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة (الحجر، 19 — 23 مكية) :

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ. وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾.

ثالثا

إن كتاب الله عندما يأخذ في عرض آياته الكونية لا يعرضها منعزلة مقتضبة، بل يعرضها مصحوبة بتبنيه سابق، أو تعقيب لاحق، ويقدمها للنوع الانساني محفوفة بأسلوب فريد لا يكاد يفارقها بحال.

فهي في نظامه الخاص إما أن تأتي مسبقة بصيغة الأمر بالنظر (انظروا) أو بما يفيد مجرد الحض على النظر، (أَفَلَا يَنْظُرُونَ)، (أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا)

وإما أن تأتي متبوعة بالنتائج التي تترتب على النظر، من تفكر وتذكر وتدبر واعتبار، ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم، 50) وإما أن تأتي مسبقة بالوسيلة التي هي النظر، ومتبوعة بالغاية المتوخاة من

النظر في آن واحد، ولاشك أن هذه الأساليب كلها تلتقي حول نقطة واحدة هي الاغراء بمحاولة الكشف عن خصائص الطبيعة، والتعرف على آثارها ومنافعها، واستخلاص العبرة منها :

1 — مثال الأمر بالنظر قوله تعالى في سورة (يونس، 101) ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

ومثال الحض على النظر قوله تعالى في سورة (الاعراف، 185) ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

2 — ومثال التنبيه إلى نتائج النظر قوله تعالى في (سورة ق 7 — 8) : ﴿وَأَبْتُنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ثَبِيرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

3 — ومثال الجمع بين الوسيلة والغاية : النظر أولاً، والاعتبار أخيراً، قوله تعالى في سورة (الأنعام، 65) ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ، لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ وقوله تعالى في سورة (آل عمران، 191) : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

رابعاً

ان كتاب الله عندما دعا الانسان إلى النظر في «ملكوت» السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يكتفي منه بالنظرة الخاطفة، والرؤية العابرة، والنظر السطحي البسيط، كمن يكتفي من الكتاب برؤية جلده الظاهر، والاعجاب بشكله الفاجر، دون أن يعرف أي شيء مما في باطن الكتاب من الحكمة والعلم، ودون أن يذوق له أي طعم، لأن ملكوت الله، بما يحتوي عليه من بدائع الصنائع أجل وأكبر، وأسمى وأخطر، من أن يُلم به النظر القاصر، والفكر العابر.

وإذا كان الاسلام بوصفه دين السماحة واليسر يكتفي من عوام الناس، بما تشاهده العين المجردة، وتلهمه الفكرة الساذجة، من إيمان «كإيمان العجائز»، فإن من هم فوق هذا المستوى من الخواص لا يقبل الله منهم إلا النظر النافذ الدقيق،

والفكر العميق، واستعمال كافة المواهب والملكات، واستثمار جميع الإمكانيات، لاستجلاء آياته البينات في كتاب الكون العظيم وكتابه الكريم، وبذلك وحده يستطيع الانسان أن يصرخ من أعماق قلبه — وقد تملأ من النظر في عجائب الكون والاعجاب بها — قائلاً تمجيذاً لله وتقديساً : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران، 191).

وتيسيراً للانسان، سبل الخوض في هذا الميدان على بصيرة من أمره لم يتركه كتاب الله مكتوف اليد، بل علمه ما لم يكن يعلم ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الأعراف، 52) وارشده إلى الكيفية الصحيحة التي يتم بها النظر، ضارباً له الأمثال، ومقدماً له النماذج ضمن آياته البينات :

أولاً : عرفه بوسيلة النظر — وهي العقل والحواس.

ومن شواهد ما قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل، 78) و«الأفئدة» هنا جمع فؤاد وهو في لغة القرآن : العقل الذي يفقه به الانسان حقائق الأمور، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الاسراء، 36).

ثانياً : عرفه بموضوع النظر — وهو الكون كله بجميع ما فيه من الكائنات، ومن شواهد ما قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف 185)، وقوله تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات 21). وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس ، 101). أي انظروا أي شيء فيهما، فهناك شيء غامض بالنسبة لكم لا بد من كشف الستار عنه وتجليته. وتعميم معرفته، ولم يقل «انظروا السماوات» فالنظر إلى الشيء هو غير النظر في الشيء.

ثالثاً : عرفه بطريقة النظر، وقدم له عدة نماذج من هذه الطريقة :

أ — النموذج الأول : مِمَّ خُلِقَ — ؟ ومن شواهد ما قوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ... الْآيَةُ﴾ (الطارق، 5 — 6).

ب - النموذج الثاني : كيف خلق ؟ ومن شواهد قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية، 17 - 20) وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق، 6).

ج - النموذج الثالث : كيف بدأ الخلق ؟ ومن شواهد قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (العنكبوت، 19) وقوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (نفس السورة، 20).

د - النموذج الرابع : كيف تطور الخلق ؟ ومن شواهد قوله تعالى في وصف الأطوار التي تسبق نزول المطر : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور، 43 - 44) وقوله تعالى في وصف أطوار الجنين : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المومنون، 12 - 14).

رابعا : عرف الانسان بالغاية المتوخاة من النظر — ألا وهي نفع الانسانية، وتمجيد الربوبية، فقد جعل معرفة الكون وسيلة لتسخيره لمنفعة الانسان، وسبيلا قاصدا لمعرفة ربه وخالقه، ومن شواهد هذه الغاية السامية بالنسبة لمنفعتنا قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان، 20) ومن شواهد هذه الغاية السامية بالنسبة لمعرفة ربنا قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، 53).

خامسا

إن كتاب الله عندما دعا الإنسان للنظر في شؤون نفسه وشؤون الكون المحيط به لم يكلفه بما لا يطيق، بل دعاه إلى استعمال أيسر الوسائل عنده، وألصقها به

وهي الخواص والعقل، وندد بمن لا ينتبه إلى ما حوله، ومن لا يستعمل حواسه وعقله، بالغ التنديد، واعتبره في مستوى الانعام أو أشد، ومن شواهد هذا الموقف قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾ (الاعراف، 179).

ولم يقف كتاب الله عند هذا الحد، بل حرص الانسان على أن يرفض كل مالم يقيم عليه دليل، وجعله أحق بالسخرية والاستهزاء إذا ارتضى لنفسه القناعة بمجرد الظنون والأوهام، أو رضي لنفسه بالتقليد الأعمى.

ومن شواهد هذه الحقيقة القرآنية قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنُوا يَعْلَمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الانعام، 143) وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِآفَاقِهِمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ (النور، 15) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَآئِنَا بُرْهَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة، 111) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (المومنون، 117) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ﴾ (الانعام، 148).

وليُبين كتاب الله مكانة الحجة والبرهان، وضرورة الاعتماد عليهما، وتأثيرهما البالغ في إحقاق الحق وإزهاق الباطل أطلق عليهما لفظ «السلطان» في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (إبراهيم، 10) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ (الكهف، 15). وانما سمي كتاب الله البرهان «سلطاناً» لقوته على دفع الباطل، كما سمي الأمير «سلطاناً» لما يتمتع به عادة من قوة وقدرة على تصريف الشؤون العامة، وصيانة لحقوق الرعية وضبط لمصالحها، مما يجعله أقوى ظهير للضعيف وناصر للمظلوم.

ثم ان كتاب الله كلما استعرض ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة نبه الازهان إلى حقيقة كونية ثابتة سارية المفعول: ألا وهي أن الله سننا في خلقه، ونواميس في كونه لا تتبدل ولا تتخلف، وتحتها تندرج الأسباب والمسببات، والوسائل والمقاصد، والمقدمات والنتائج، وفي ذلك تربية للفرد والجماعة على التفكير المنطقي السليم، والتقيد بالنظام في السلوك والعمل، وتنفيذ من الاعتماد على الصدق

والمفاجآت، وتحصين ضد الفوضى الفكرية والحياة الخرافية. ومن نتائج تلك التربية القرآنية أن أصبح كل من يقرأ القرآن يتدبر وروية وفهم، لا يمكن أن يركن إلى الخرافة والخيال والوهم. وبذلك توسل القرآن الكريم إلى تكوين «الأمة العلمية» المثالية، كبديل عن «الأمة الأمية» الخرافية، التي عرفت الجاهلية، إذ لم يبق لها مكان ولا مبرر، بعدما أرسل الله إلى الناس رسولا من أنفسهم، «يعلمهم الكتاب والحكمة ويُرِكيهم».

ومن شواهد هذه الحقيقة الكونية التي بشر بها كتاب الله قوله تعالى : ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الاسراء، 77). وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب، 62). وقوله تعالى : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر، 43).

سادسا

إن كتاب الله عندما دعا الانسان إلى النظر في نفسه وفي الكون المحيط به لم يكن من المعقول أن يدعوه إلى النظر فيما هو خارج عن حدود طاقته، لأن ذلك يُعدُّ من باب التكليف بما لا يطاق، وإنما دعاه إلى النظر فيما يتأتى له النظر فيه بالوسائل التي يتوفر عليها، مما هو داخل في نطاق استعداده وقدرته، وملائم لتكوينه وطبيعته، وبذلك فتح القرآن في وجه الانسان — أي إنسان كان — باب البحث العلمي على مصراعيه دون تقييد ولا تحديد. أما إذا كان الأمر فوق طاقته، أو لا يتوفر على وسائل معرفته، فإنه لا يدعوه إلى النظر فيه أصلا، أو يكشف له عن بعض ملامحه بطريق الوحي والخبر. لا بطريق الفكر والنظر، ومن شواهد الحالة الأولى قوله تعالى في سورة الاسراء (85) : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقوله تعالى في سورة (يونس، 20) : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، ومن شواهد الحالة الثانية قوله تعالى في (سورة هود، 49) : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ وقوله تعالى في سورة (آل عمران، 179) : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ثم إن الأمر بالنظر والحضّ عليه من قبل الله عزّ وجل يتضمن الإذن للناظر في مواصلة النظر إلى النهاية، سواء أخطأ أم أصاب، مادام الأمر يتعلق بمحاولة تفسير وتسخير ظواهر الكون والوجود، دون انكار للخالق ولا جحود، ونفس الأمر بالنظر يقتضي أن موضوع النظر غير مُحرّم على الناس ولا محبوب عنهم، إذ أن ما يريد الله أن يستأثر بعلمه لا يدعو الناس إلى النظر فيه بل يوقفهم عند حدّهم ويعرّفهم بعجزهم، وهو سبحانه وحده الذي انفرد بكونه «عالم الغيب والشهادة» قال تعالى : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل، 65).

وقال تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبا، 3).

سابعاً

إن كتاب الله عندما دعا الانسان إلى النظر في الكون وجه نظره بالخصوص — علماً وعملاً — إلى العالم المحيط به والقريب منه، الذي ينتمي إليه ويتوقف في حياته عليه، وهو «عالم الشهادة» الفسيح، الذي جعله الله مختبراً للانسان يُدرّب فيه عقله، وورشاً يمارس فيه نشاطه، وآتاه من الاستعدادات والملكات ما يساعده على كشف خفاياه، وحل ألغازه وخباياه، وتسخير عناصره ومكوناته، والتعرف على حكمة الصانع من خلال مصنوعاته، وعلى العكس من ذلك لم يدفع الإنسان العادي إلى المجازفة والمخاطرة باستعمال نظره فيما هو فوق طاقته، من العوالم الأخرى التي لا ينفذ إليها عقله، أو استأثر الله بعلمها دون خلقه، لكونها فوق عقل الإنسان وليست من مشمولات نظره، ومحاولة كشف أسرارها تُعدّ من التخرص على علم الغيب، والتّجذيف في متاهات الشك والريب.

وإذا كانت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته، وإذا كانت هذه المعرفة مطلباً سامياً من مطالب الانسان وأعزّ رغباته، فإن حكماء الاسلام ينصحون طالبها والراغب فيها بأن يطلبها بالخصوص من «عالم الشهادة» الذي هو العالم المألوف للانسان، والقريب من مستوى عقله ونظره، بدلاً من

«عالم الغيب» الذي هو فوق مستوى إدراكه العادي، قال ابن عطاء الله في كتابه «الحكم» : «أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته»، وقال أبو اسحاق الشاطبي في كتابه «الموافقات» ج 2 : ص : 283 — 284 : «لا يقال إن المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته، ومن جملتها : العوالم الروحانية، وخوارق العادات، فيها تقوية للنفس، واتساع في درجة العلم بالله تعالى، لأننا نقول : إنما يُطلب العلم شرعاً لأجل العلم، وما في «عالم الشهادة» كاف وفوق الكفاية، فالزيادة على ذلك فضل... ولو لم نجد مانستدل به على ذلك لكان لنا بعض العذر في التخطي عن «عالم الشهادة» إلى «عالم الغيب»، فكيف وفي «عالم الشهادة» من العجائب والغرائب القريبة المأخذ، السهلة المتتمس، ما يفني الدهر وهي باقية لم يبلغ منها في الاطلاع والمعرفة عشر العشار، ولو نظر العاقل في أقل الآيات، وأذل المخلوقات، وما أودع بارئها فيها من الحكم والعجائب لقضى العجب، وانتهى إلى العجز في إدراكه، وعلى ذلك نبه الله تعالى في كتابه ان ننظر فيه كقوله تعالى : ﴿أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآيَةِ﴾

ثامنا

إن كتاب الله تحدث في غير ما سورة من سوره المكية والمدنية عن «تسخير ما في السماوات وما في الأرض للانسان، وامتن عليه بذلك في غير ما آية من آياته البينات، ولا يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه إلا بنعمه الظاهرة والباطنة. ونعمة «التسخير» التي امتن بها على الانسان تستلزم وَضْعُ الشيء «المُسَخَّر» رَهْنِ إشارته، وطُوع يديه وفي قبضته، وجَعْلُهُ مَسْوْقاً لتحقيق أغراضه وخدمة مصلحته، حتى يتمكن من الانتفاع به، وتوجيهه الوجهة التي يريد دون عائق ولا مانع. غير أن الانسان لا يمكنه الحصول على هذه النعمة الكبرى، والوصول إلى هذه الغاية القصوى إلا إذا كرس جهوده وطاقاته، وواصل محاولاته للكشف عما في الطبيعة من خبايا وأسرار، واستطاع أن يقطع المراحل اللازمة للتعرف على دخالها واستقراء خصائصها أولاً بأول، وبذلك وحده يهتدي إلى طرق استعمالها، ووجوه

الانتفاع بها في مختلف الأغراض والمقاصد فلا بد للانسان إذن من تَحْطِي هذه العقبة الكأداء. حتى تتم له نعمة «التسخير» التي من الله بها عليه، ووكّلها إليه، ومقتضى ذلك ان الانسان مدعو من ربه إلى استعمال فكره ونظره في البحث والاستكشاف والاستطلاع، ومطالب باستكناه ما تمثله ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة من حقائق وسُنن ونواميس وقوانين.

وواضح أن كتاب الله عندما امتن على الانسان «بتسخير الكون» له يكون قد أعلن على رؤوس الملائ أن تسخير الطبيعة للانسان ليس بشيء مستحيل، وإنما هو أمر داخل في حدود الامكان وحيز الواقع، وأن تسخير الانسان للطبيعة بإذن الله وحوله وقوته، ليس فوق طاقة الإنسان وقدرته، وإنما عليه أن يمرن عقله، ويصقل فكره، ويبدل جهده، ويمارس حقه في الكشف عن الحقائق الكونية والنواميس الطبيعية، حتى تنقاد له تمام الانقياد، ويبلغ منها المراد، الذي هو خدمة البلاد والعباد، وليكن واثقا بأن هذا العمل من جانبه لا يُعَدُّ تطاولا على الله، وإنما هو امتثال لأمر الله، وأن الدور الذي يقوم به هو دور «البستاني» الحاذق الذي يعمل في «حديقة الله» بإذن من الله.

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة، 29) وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (الحج، 65) وقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية 13) وهكذا كان كتاب الله بأساليبه المُغرية والمشجعة مصدر الإلهام والتوجيه للمسلمين في مختلف الميادين الفكرية والعلمية، ماجد منها وما قُدِّم.

ألا وإن الله كَتَبَ في الوجود : كتاباً مسطوراً أحكمت آياته في الذكر الحكيم ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت، 49) وكتاباً منظوراً فصّلت آياته في آفاق الكون العظيم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت، 53) وعن هذا الكتاب المنظور يقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الانعام، 75) ويقول الله تعالى حكاية عن خاتم الأنبياء والمرسلين، : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

(النجم، 18)، الكتاب الأول تنطق آياته بلسان المقال، وهو شَيْبَةُ المدخل والمقدمة، والكتاب الثاني تنطق آياته بلسان الحال، وهو المقصود والخاتمة ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
الكتاب الأول : اقتضت حكمة الله أن يكمل ويبلغ حد التمام، فأحصى آياته عدداً، والكتاب الثاني اقتضته إرادة الله أن يبقى مفتوحاً إلى الأبد، وأن تظل الكتابة فيه دائماً سرّمداً ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

